دروس مستفادة من
تاريخ المكتبات الإسلامية

* النشأة والأنواع.
* المبانى والتجهيزات.
* الموارد المالية ووجوه الانفاق.
* العاملون.
* المجموعات.
* النظم والإجراءات الفنية.
* الخدمات والأنشطة.

obeikandi.com

obeikandl.com

تمهيد:

نستفتح بالذى هو خير، بخير الكلام، كلام اللّه. يقول اللّه عز وجل، ولم يزل قائلاً: «وللّه خزائن السموات والأرض، ولكن المنافقين لا يفقهون»[1]. والحديث هنا عن نوع من هذه الخزائن، وهى خزائن الكتب، أو دور الكتب، أو دور العلم ـ سمها ما شئت ـ والتى يحفل التاريخ الإسلامى بذكر العديد منها وعنها. والحق يقال أن تاريخ هذه الخزائن وكل ما يتصل به من تراث فكرى، هو تاريخ الأمة الإسلامية، فخزائن الكتب أو ما نطلق عليه اليوم المكتبات ومراكز المعلومات هى ـ دون مبالغة ـ عقل الأمة، وقلبها النابض، ولسانها الناطق.

وتتناول هذه الدراسة تحديداً جانباً من تاريخ خزائن الكتب الإسلامية وهى: خزائن الكتب العباسية، وتبحث فى مواردها، ونظمها، وخدماتها فى الفترة من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٦٥٦هـ وهى فترة تزيد على خمسة قرون تمثل عمر الدولة العباسية.

وكما عمّرَ حكم بنى العباس طويلاً فقد اتسعت رقعة دولتهم لتشمل مساحة كبيرة من المعمورة، انقسمت إلى أربعة عشر إقليماً ذكرها المقدسى تفصيلاً فى كتابه: «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم».

وقد غطت الدراسة البعد التاريخى للدولة العباسية بأكمله، وإن اقتصرت فى بعدها الجغرافى على ما اصطلح على تسميته بالعراق العربى والعجمى.

---

(١) المنافقون: ٧.

وشهدت الدولة العباسية فى حياتها السياسية تفككاً خطيراً نتج عنه انسلاخ أجزاء منها، وتكون دول ودويلات مستقلة وفى حياتها ضم العالم الإسلامى ثلاثة مراكز للخلافة، واحدة عباسية فى بغداد، والثانية أُموية فى الأندلس، والثالثة فاطمية فى مصر. ولم يسلم المشرق القريب من الخلافة العباسية من هذا التفكك فقد استقلت الدولة الطاهرية ثم الصفارية فى بلاد فارس، كما قامت الدولة السامانية.

ومنذ اليوم الأول لقيامها، ارتكزت الحضارة الإسلامية فى الدولة العباسية ـ رغم التفكك السياسى ـ على مجموعة من الركائز أو الخصائص كان من أبرزها تقدير العلم والعلماء، واحترام الكتب كأوعية للمعارف والعلوم. وقد تحول هذا الاحترام والتقدير إلى حب تولّد من حب القرآن الكريم، وأثمر اهتماماً شديداً بدور العلم ومؤسساته، وكل ما له صلة بالعلم، بما فى ذلك خزائن الكتب.

وكمؤسسة حضارية تبارى المسلمين حكاماً ومحكومين فى إنشاء خزائن الكتب، تعبيراً عن حبهم وتقديرهم للعلم وأدواته، ومن أهمها الكتب.

وتهدف هذه الدراسة ـ ضمن ما تهدف ـ إلى المشاركة أو الإسهام فى كتابة تاريخ خزائن الكتب فى العالم الإسلامى بأبعاده التاريخية الثلاثة (القديم والوسيط والحديث)، فضلاً عن البعد الجغرافى، ذلك أن تاريخ المكتبات فى العالم الإسلامى لم يكتب بعد بالمعنى الشامل والمنهجى. وما كتب حتى الآن لا يعدو أن يكون نتفاً وشتاتاً لا يجمعها رابط أو منهج.

ويعد العصر العباسى ـ موضوع الدراسة ـ بمثابة الفترة الذهبية التى عاشتها خزائن الكتب الإسلامية، والتى لا يمكن لأية دراسة عن تاريخ المكتبات أن تتجاهلها خاصة أن ما قبلها من عصور تاريخية ـ عاشت فى ظلها خزائن الكتب ـ كانت بمثابة فترة المولد والحضانة.

ولا شك أن التاريخ ودراسته بالنسبة لأى علم من العلوم يعد بمثابة الركيزة أو

الأساس الذى يقام عليه العلم ويؤسس. والواقع المعاش لعلومنا ومكتباتنا ومهنتنا يؤكد حاجتنا الماسة لهذه الركيزة أو الأساس.

ومن الأمور المؤسفة أن جمهرة من الدارسين والعاملين بالمهنة لا يدركون أن دراسة تاريخ مكتباتنا يقدم لنا معيناً لا ينضب من التجارب المثمرة، ويعيننا على فهم الحاضر، وتفسير ظواهره، والتنبؤ بالمستقبل، وهذا هدف آخر من أهداف الدراسة.

أما الهدف الثالث والأخير فهو التعرف على عناصر ومكونات الخدمة المكتبية فى العصر العباسى (الموارد، والنظم والخدمات)، والتثبت من أن أى نقص أو غياب لأى عنصر من هذه العناصر أو عناصرها الفرعية يؤثر لا محالة فى الخدمة ذاتها، وأن اكتمال هذه العناصر كماً وكيفاً يؤدى إلى ازدهار الخدمة.

هذا عن موضوع الدراسة وأهدافها وأهميتها. ولكن ماذا عن الدروس المستفادة؟ إن الدروس المستفادة من تاريخ هذه الخزائن أكثر من أن تستوعبها طاقة باحث فرد ونتفق منذ البداية على أننا لن نعددها درساً درساً، بل نترك ذلك لفطنة القارئ، وجميل متابعته، وما يفتح اللّه به عليه.

وكمدخل للموضوع نبدأ بالحديث عن نشأة خزائن الكتب العباسية وأنواعها، ثم ننتقل بعدها للحديث عن الموارد المادية ممثلة فى المبانى والتجهيزات والموارد المالية، وبعدها نتناول موضوع العاملين كمورد بشرى، ومنه ننتقل تفصيلاً إلى بقية الموضوعات ذات الصلة بنظم العمل فى هذه الخزائن والخدمات التى تقدمها، والأنشطة المدعمة والمكملة لهذه الخدمات.

أولا : النشأة والأنواع

بدأت خزائن الكتب الاسلامية فى الظهور فى قصور الخلفاء الأمويين وغيرهم من كبار رجالات الدولة الأموية، ونذكر من هذه الخزائن على سبيل المثال:

١ ـ خزانة كتب الخليفة معاوية بن أبى سفيان (٤١ ـ ٦٠هـ)، وهى أقدم هذه الخزائن، وقد كان لمعاوية غلمان مرتبون وكلوا بحفظ دفاتر خزانته وقراءتها له ـ كما يقول المسعودى فى مروجه.

٢ ـ خزانة كتب خالد بن يزيد بن معاوية (ت سنة ٨٥هـ)، والذى أنشأ ما يمكن أن نطلق عليه خزانة كتب متخصصة فى مجال العلوم (الطب والكيمياء والنجوم).

٣ ـ خزانة كتب خلفاء بني أمية ، وقد أشار إليها ابن جلجل فى طبقاته بقوله «وجد عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ (٩٩ ـ ١٠١هـ) كتاب أهرن بن أعين القس فى الطب فى خزائن الكتب، فأمر بإخراجه ووضعه فى مصلاه فاستخار الله فى إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فلما تم له فى ذلك أربعين (والصواب أربعون) صباحاً، أخرجه إلى الناس، وبثه فى أيديهم».

وتوحى عبارة «خزائن الكتب» فى حديث ابن جلجل بأنه كانت توجد فى خدمة الخلفية الأموى عمر بن عبد العزيز مجموعة من الخزائن، هى خزائن الخلفاء الأمويين السابقين، وقد آلت لعمر بن عبد العزيز.

وتمثل خزائن الكتب الأموية البدايات المتواضعة لخزائن الكتب الإسلامية، والبذرة الأولى التى بدأت تؤتى ثمارها فى العصر العباسى الذى عرف معظم أنواع خزائن الكتب المعروفة الآن.

ونتناول فيما يلى بإيجاز هذه الأنواع التى شكلت فيما بينها شبكة كاملة من خزائن الكتب غطت أرجاء الدولة العباسية المترامية.

١ ـ خزائن الكتب الخاصة:

وهى الأقدم من حيث النشأة، فضلاً عن الكثرة والانتشار، وكانت فى معظمها للخلفاء والسلاطين والوزراء والعلماء والأدباء.

٢ ـ خزانة كتب الدولة (بيت الحكمة):

فى حديثه عن أعظم خزائن الكتب فى الإسلام يذكر القلقشندى فى موسوعته صبح الأعشى ثلاث خزائن، إحداها خزائن كتب الخلفاء العباسيين ببغداد، ويعنى بها بيت الحكمة، والثانية خزائن كتب الخلفاء الفاطميين بمصر، والثالثة خزانة خلفاء بنى أمية بالأندلس.

٣ ـ خزائن الكتب العامة:

كان من نتائج إنشاء بيت الحكمة التنافس بين كبار رجالات الدولة العباسية وأدبائها وعلمائها ـ خاصة الموسرين منهم ـ التنافس فى إنشاء خزائن الكتب العامة؛ وقد اشتهر من هذه الخزائن:

أ ـ خزانة كتب الحكمة بكركر (ق ٣هـ).

ب ـ دار العلم بالموصل (ق٤هـ).

جـ ـ دار الكتب أو خزانة الوقف بالبصرة (ق٥هـ).

د ـ دار العلم ببغداد (ق ٥هـ).

هـ ـ خزانة كتب دار المسناة ببغداد (ق٦ / ٧هـ).

٤ ـ خزائن كتب المساجد:

بدأ المسجد فى أداء رسالته التعليمية مع ظهور الإسلام وكان لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل السبق فى هذا المجال. وقد حث عليه الصلاة والسلام عامة المسلمين على بناء المساجد فقال:

«من بنى لله مسجداً،... بنى الله له بيتاً فى الجنة»، وكانت المساجد ـ بصفة عامة ـ من أنسب الأماكن لإنشاء خزائن الكتب.

ومن أشهر الخزائن الملحقة بالمساجد فى العصر العباسى:

أ ـ خزانة كتب جامع ميافارقين، وجامع آمد بديار بكر.

ب ـ خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدى ببغداد.

جـ ـ الخزانة العزيزية والخزانة الكمالية بمرو.

د ـ خزانة كتب جامع البصرة.

هـ ـ خزانة كتب جامع قمرية ببغداد.

٥ ـ خزائن كتب المدارس:

ومع إقبال المسلمين على التعليم، وانتشار المساجد، وكثرة الحلقات التعليمية وغيرها داخل المساجد أحس المسلمون بالحاجة الماسة إلى إنشاء المدارس. وشهد النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى مولد هذه المدارس، ومن أشهر خزائن كتبها:

أ ـ خزانة كتب مدرسة أبى حنيفة (ق٥هـ).

ب ـ خزانة كتب المدرسة النظامية (ق٥هـ).

جـ ـ خزانة كتب المدرسة المستنصرية (ق٧هـ).

وثلاثتها ببغداد.

٦ ـ خزائن كتب البيمار ستانات والربط والترب وغيرها:

وعرفت الدولة العباسية أنواعاً أخرى من الخزائن، كان من بينها خزائن الكتب الملحقة بدور المرضى (البيمار ستانات) والملحقة بالربط، والملحقة بالترب والمشاهد والأضرحة وغيرها.

ونذكر منها على سبيل المثال:

أ ـ خزانة كتب المارستان العضدى ببغداد (ق٤هـ).

ب ـ خزانة كتب رباط أصحاب الحديث فى مرو (ق٦هـ).

جـ ـ خزانة كتب الرباط بالحريم الطاهرى (ق٦ / ٧هـ).

د ـ خزانة الكتب الملحقة بتربة زوجة الخليفة الناصر (ق٦هـ).

وهكذا شهدت بغداد وما حولها من المدن كل أنواع المكتبات التى نعرفها اليوم، وقد توافرت عناصر تقديم الخدمات والأنشطة فى هذه المكتبات من موارد مادية وبشرية ونظم، وهذا ما سنتناوله تفصيلاً فيما يلى:

ثانيا: المبانى والتجهيزات

اتصفت خزائن الكتب العباسية بالسعة والنفاسة والجمال. وفى عبارات بليغة وموجزة، يصف ياقوت الحموى الجو المحيط بمبنى الحكمة بكركر بقوله «كان لعلى بن المنجم (ت سنة ٢٧٥هـ) ضيعة نفيسة، وقصر جليل، فيه خزانة كتب عظيمة».

ويصف المقدسى دار عضد الدولة البويهى (ت سنة ٣٧٢هـ) فى شيراز ـ بما فى ذلك خِزانة الكتب الملحقة ـ بقوله:

«لم أر فى شرق ولا غرب مثلها، ما دخلها عامى إلا افتتن بها، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها... فيها ثلاثمائة وستون حجرة وداراً، كان مجلسه كل يوم واحدة إلى الحول، وهى سفل وعلو، وخزانة الكتب حجرة على حدة... وهى أزج (بناء مستطيل مقوس السقف) طويل فى صفة (بهو واسع عالى السقف) كبيرة».

ويقول الأربلى فى وصف المدرسة المستنصرية ـ وخزانة الكتب جزء منها ـ إنها «جاءت محكمة البناء، راسخة فى الماء، فسيحة الفناء، وصفها غريب، وحسن ترتيبها عجيب، شامخة إلى عنان السماء، تضحك شرفاتها بالسرور، ويظهر فى أبنيتها الفرح والحبور، ويلمع العز فى جوانبها، ويظهر السعد من أساسها وأعاليها».

واتسعت قاعات خزائن الكتب لتستوعب كافة العاملين بها، والمشرفين عليها، كما اتسعت فى الوقت ذاته لتستوعب فئات الرواد، هذا بالاضافة إلى استيعابها مجموعات الكتب العربية والأجنبية، وغيرها من المواد، فضلاً عن المرافق أو الملاحق التى أعدت لخدمة العاملين والرواد، خاصة المقيمين منهم بالخزائن. ومن البديهى أنه ألحق بهذه المرافق مساحات أخرى خصصت لتناول الطعام، وللحمامات، وغير ذلك.

وأفردت بعض الخزائن ـ خاصة الملحقة بدور العلم ـ حجرات لتقديم الخدمات والأنشطة غير القراءة لروادها كإلقاء المحاضرات والخطب والشعر، وغير ذلك. ومن هذه الخزائن دار العلم بالموصل، ودار العلم ببغداد.

واستُخدمت بعض القاعات كمنتدى وملتقى للرواد، ومنها خزانة الوقف (دار الكتب) بالبصرة، وقد كانت كما يصفها الحريرى (ت سنة ٥١٦هـ) «منتدى المتأدبين، وملتقى القاطنين» وهى تعد بذلك بمثابة مركز ثقافى واجتماعى وإعلامى وترفيهى، فضلاً عن كونها أساساً مركزاً تعليمياً.

وتم تجهيز الخزائن بالأثاث والتجهيزات والأدوات المناسبة لحفظ المجموعات

وصيانتها، وتسهيل استخدامها وتناولها، ولتكون هذه الخزائن مهيأة لاستقبال وإقامة الرواد وراحتهم، فضلاً عن راحة العاملين ورفاهيتهم.

ومن خلال النصوص المتاحة نستعرض بعض مفردات هذه التجهيزات:

فى عبارة موجزة يصف الأربلى مبانى وتجهيزات المدرسة المستنصرية ـ وخزانة الكتب جزء منها ـ بقوله: «لما تكملت أبنيتها، كُسيت بأفخر الملابس، وتجلت كأحسن العرائس»، والكسوة هنا كل ما كسا وغطى أرض المبنى وجدرانه من بسط وفرش ومراتب وملاحف وستور وغير ذلك.

وكان القوم فى مجالسهم يميلون إلى ما يعرف اليوم بالجلسة الشرقية أو العربية، وهى افتراش الأرض باستخدام السجاجيد أو البُسط أو الحصر أو المراتب وغيرها.

ويتحدث المقدسى عن الدار التى بناها عضد الدولة البويهى فى شيراز ـ وخزانة الكتب حجرة على حدة فيها فيقول:

«طفت فى الدار كلها، سفلها وعلوها، وقد فُرشت فيها الآلات، فرأيت فى كل مجلس ما يليق به من الفرش والستور».

ولأن النسخ فى بعض الخزائن كان لا ينقطع، ولأن عمل النساخ كان لا يتوقف، فقد أعد بعض أصحاب خزائن الكتب الخاصة أماكن لمبيت النساخ وزودوها بالملاحف والأكباس، ومن هؤلاء: أبو شيبة السدوسى (ت سنة ٢٦٢ هـ) وكان يعد أربعين لحافاً لمن يبيت عنده من الوراقين، وأبو نصر سهل بن المرزبان (ت سنة ٤٢٠هـ) وكان عنده خمسون لحافاً وكيساً لمن يبيت عنده من النساخ.

وفى وصف دقيق ومفصل للخزائن الخشبية المستخدمة فى خزانة كتب عضد الدولة البويهى (ت سنة ٣٧٢هـ) نطالع ما ذكره المقدسى:

«فيه ـ أى مبنى الخزانة ـ خزائن من كل وجه، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق، عليها أبواب تنحدر من فوق».

ويوحى هذا الوصف بأن مصممى هذا الخزائن الخشبية قد حاولوا استغلال كافة الفراغات فى مبنى الخزانة لاستيعاب الأعداد الكبيرة من الكتب، فالخزائن من كل وجه، كما أنها تتصف بأنها عملية فى تناولها ولا تحتاج إلى سلالم أو غيرها للوصول إلى الكتب، خاصة فى الأرفف العليا، فهى فى متناول الرجل العادى. وللوقاية والحفظ من الأتربة ـ وربما السرقة وغيرها ـ فقد أضيفت للخزانة أبواب مرنة (تنحدر من فوق).

وفضلاً عن كل هذه الميزات فقد أضيفت بعض اللمسات الجمالية والفنية إلى الخزائن، واستخدم الخشب المزوق لتكون هذه الخزائن فى مستوى فخامة وجمال المبنى، ودار عضد الدولة البويهى ككل.

ثالثا: الموارد المالية ووجوه الانفاق

١ ـ الموارد المالية (الإيرادات):

اهتم خلفاء الدولة العباسية، وغيرهم من كبار رجالاتها بإنفاق المال فى أوجهه الشرعية، ومن أهمها إنفاقه فى سبيل العلم ونشره، وكان لخزائن الكتب النصيب الأوفر من هذه النفقات.

وعبرت الأوقاف السخية التى حبسها العباسيون على خزائن الكتب، وغيرها من الأموال والهبات عن التقدير الحقيقى لكرامة العلم والعلماء، والإيمان بالدور الذى تؤديه خزائن الكتب كمؤسسات تربوية وتعليمية.

وكان الوقفُ مورداً مالياً رئيسياً، وربما فاق ما رصدته الدولة من أموال عامة للإنفاق على خزانة كتب الدولة (بيت الحكمة). وقد تنافس الجميع فى

هذا المجال ـ كل حسب قدرته ـ مستلهمين هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث، إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

ولم تكن الأوقاف التى يوقفها أصحابها هى المورد المالى الوحيد للإنفاق على الخزائن، فقد كانت هناك المبالغ المالية التى يرصدها أصحابها لبناء وانشاء مبانى الخزائن، وصيانتها، وتأثيثها وتجهيزها، وتزويدها بالكتب وغيرها من المواد، وبالعدد المناسب من العاملين، وغير ذلك. وهذه المبالغ والنفقات غير الهبات العديدة، المالية وغير المالية، التى يقدمها رجالات الخير.

ويمكن أن نستنتج مدى ضخامة المبالغ والنفقات التى تم رصدها إذا عرفنا أن رجلاً واحداً هو أبو الحسن على بن يحيى المنجم (ت سنة ٢٧٥هـ) قد رصد المبالغ اللازمة للإنفاق على خزانة الحكمة بكركر، وقد تحمل بمفرده نفقات إنشاء مبنى الخزانة، وصيانتها وتجهيزها، وبناء مجموعات الخزانة وإعدادها للاستعمال، بالاضافة إلى رواتب العاملين، ونفقات الرواد خاصة المقيمين منهم بالخزانة إقامة دائمة.

وهناك أيضاً ابراهيم بن اسحق الحربى (ت سنة ٢٨٥هـ)، وقد كان له اثنتان وعشرون داراً وبستاناً باعها وأنفقها على الحديث. ويبدو أن الجزء الأكبر من هذه النفقة كان البند المخصص لبناء مجموعات خزانته وهى فى اللغة والغريب، وقد كتبها كلها بخطه.

ولنا أن نقدر حجم المبالغ الهائلة التى رصدها عضد الدولة البويهى (ت سنة ٣٧٢هـ) للإنفاق على خزانة كتبه الخاصة التى أنشأها فى شيراز، وقد كان حريصاً على تحصيل «كل كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها» كما يقول المقدسى.

وهذه الخزانة غير خزانة كتب المارستان العضدى التى تنسب إليه وقد تحمل نفقات إنشائها، وتنظيمها، وإدارتها، وحُبست عليها وعلى المارستان الأوقاف ـ كما جاء فى المنتظم لابن الجوزى.

٢ ـ وجوه الانفاق (المصروفات):

أ ـ المبانى:

كانت خزانة الكتب تحتل جانباً هاماً فى كل قصر ودار. ويبرز اسم جعفر البرمكى (ق٢هـ)، وعضد الدولة البويهى (ق٤هـ) بين آخرين ممن اهتموا ببناء القصور والدور وبالغوا فى ذلك. ومن وصف ابن الساعى (فى كتابه نساء الخليفة) لقصر جعفر البرمكى يمكن أن نستنتج مدى ضخامة المبالغ التى أنفقت على قصره، بما فى ذلك خزانة كتبه. يقول ابن الساعى:

«... عَمَدَ جعفر إلى الجانب الشرقى، واتخذ به قصراً شيد بناءه، وأوسع فناءه وفضاءه، واتخذ منه بستانا ذا رياض مخصبة مريعة، وغرس به من أنواع الشجر ما يثمر بكل ثمرة بديعة، وبالغ فى إنفاق الأموال، وجمع الصناع والرجال...، واتخذ فى هذا القصر ثلاثمائة وستين مَرْفِقاً ما بين مجلس ومستشرف وحجرة وخيش وخزانة».

وكان مقر حكم عضد الدولة البويهى يشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة وداراً، وكانت خزانة الكتب حجرة على حدة فى هذا المقر، وقد اتسعت لعدد هائل من الكتب وخزانة كهذه يصعب تقدير تكاليف مبناها خاصة وقد كانت جزءاً من مبنى كبير تكلف الكثير.

وفى خلافة المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ) افتُتحت المدرسة المستنصرية ـ بما فى ذلك خزانة كتبها ـ وكان العمل قد بَدَأَ فى بنائها سنة ٦٢٥هـ، وتكامل البناء سنة ٦٣١هـ، وما زال المبنى حتى يومنا هذا شاهداً على عِظم الإمكانات البشرية

والمادية التى سُخرت لإنجاز هذا المبنى الشامخ. وفى عبارة عامة يصف السيوطى نفقات المدرسة ككل بأنه «أمر لم يُسبق إلى مثله».

ب- التجهيزات والأدوات:

أورد المؤرخين فى هذا المجال صفات عامة ومعلومات توحى فى مجملها بعظم هذه المصروفات لتتفق مع عظم النفقات الخاصة بالمبانى.

يتحدث ابن الساعى عن تجهيز قصر جعفر البرمكى بالتجهيزات المناسبة وكان من بين مرافقه خِزانة أو خزائن الكتب، فيذكر:

«أن جعفراً قد كتب إلي كل ناحية بأن يُتخذ لكل مقصورة فرش على مقادير أبنيتها، ولم يكتف بذلك بل عول على خزائن أمير المؤمنين (هارون الرشيد)، الخاصة بالفرش، لأنه قد (بقى شئ لم يتهيأ اتخاذه)».

وشكلت الأدوات والتجهيزات الخاصة بصناعة الكتاب، ونسخه، وزخرفته، وتجليده، وصيانته جانباً كبيراً من نفقات هذه الخزائن، وهى غير الأوراق والأقلام وغيرها من أدوات الكتابة التى كانت تقدمها بعض الخزائن لروادها مجاناً خاصة لمن أراد النسخ.

وكذلك شكلت الأدوات الخاصة بإعداد المجموعات وتسجيلها كالفهرسات، والسجلات (الثبوت) والأختام، وغيرها، شكلت جانباً هاماً من مصروفات خزائن الكتب على اختلاف أنواعها وأحجامها.

جـ- المجموعات:

تدخلت اعتبارات عديدة فى تحديد أسعار الكتب، كان من بينها: شهرة المؤلف والناسخ، وأهمية موضوع الكتاب، وحجمه، وندرته، وورق النسخة، وزخارفها، وتجليدها، وغيرها من الاعتبارات.

وبعث الحكم المستنصر بن الناصر الخليفة الأُموى فى الأندلس (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ) فى كتاب الأغانى وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق.

وضمت الخزائن ـ من بين مجموعاتها ـ العديد من التحف والطرائف (غير الكتب) وهى لا تقدر بثمن، كان منها على سبيل المثال الصورة المأمونية التى عملت للمأمون، وكانت ضمن مقتنيات خِزانة كتب المأمون الخاصة ـ على الأرجح ـ.

د ـ الرواتب والمنح والعطايا والخلع:

خُص المشرفون على الخِزانة فى خزائن الكتب التى اعتمدت أساساً على الأوقاف كمورد مالى بنصيب موفور من هذه الأوقاف. وكان من بين هذه الخزائن خِزانة كتب المدرسة المستنصرية.

وفى خزانة كتب المدرسة النظامية كان خازن الكتب أو متولى الكتب يتقاضى راتبه نقداً من الأوقاف الموقوفة على المدرسة، وقد وضع له بانى المدرسة راتباً شهرياً قدره عشرة دنانير.

وكان محمد بن عبد الملك الزيات (ت سنة ٢٣٣هـ) ممن نُقلت له الكتب اليونانية، وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه، وكان عطاؤه للنقلة والنساخ فى كل شهر ما يقارب ألفى دينار.

وفاق عطاء المأمون من جاء قبله وبعده من الخلفاء، فقد كان يعطى حنين بن اسحق (ت سنة ٢٦٤هـ) من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى اللغة العربية مثلاً بمثل، وقد حكى هو نفسه عن الأجر الذى كان يتقاضاه فى نقل الكتب بقوله: «كنت إذا نقلت لأحدهم كتاباً أخذت منه وزنه دراهم».

وفضلاً عن الرواتب والمنح والعطايا التى قدمت للعاملين فى الخزائن على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم، خلِع على بعضهم تقديراً لدورهم.

ففى يوم افتتاح المدرسة المستنصرية قام الخليفة المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ) بمنح جميع العاملين فى خِزانة الكتب خُلعاً، بما فى ذلك المناول.

هـ ـ المصروفات الأخرى:

التزمت بعض الخزائن بكافة المصروفات الخاصة بالإقامة الدائمة أو شبه الدائمة فى الخِزانة، والتفرغ لطلب العلم، أو الانقطاع للعمل، ومن هذه المصروفات نفقات المبيت والمأكل والمشرب، وغير ذلك من مستلزمات الإقامة.

وتعهدت بعض الخزائن بتقديم كافة المساعدات المالية للطلاب خاصة الغرباء والفقراء. كما أفاد العديد من الطلاب ورواد الخزائن والعاملين بها من الرعاية الطبية، والعلاج المجانى الذى كانت تقدمه بعض المدارس.

ونورد فيما يلى بعض النماذج والأمثلة عن الخزائن التى تحملت هذا النوع من المصروفات:

١ ـ **بيت الحكمة:** كان لهذه الخزانة فضل السبق فى مجال تقديم التيسيرات الخاصة بالانقطاع أو التفرغ. ويرد اسم محمد بن موسى الخوارزمى (ت سنة ٣٨٣هـ) كواحد من العلماء الذين انقطعوا إلى هذه الخِزانة.

٢ ـ **خزانة الحكمة بكركر:** كان الناس يقصدونها من كل بلد، فيقيمون فيها، ويتعلمون، وكانت الصيانة مشتملة عليهم، والنفقة فى ذلك من مال على ابن يحيى المنجم (ت سنة ٢٧٥هـ).

٣ ـ **دار الكتب بالبصرة:** قدمت الرواتب (المساعدات المالية) لمن قصدها ولزم القراءة والنسخ فيها.

٤ ـ **خزانة كتب الحديث:** تحملت نفقات تقديم أدوات الكتابة كالورق والأقلام والأحبار مجاناً لروادها.

٥ ـ **خزانة كتب المدرسة المستنصرية:** كان العاملين بالخزانة ضمن من أظلتهم مظلة الرعاية الصحية والطبية من العاملين بالمدرسة.

رابعا: العاملون

اكتسبت خزائن الكتب على اختلاف أنواعها وأحجامها وتبعياتها سمعة طيبة بفضل العاملين بها من كبار الأدباء والعلماء وغيرهم. وقد اجتمع في بعض الخزائن ـ خاصة كبيرة الحجم ـ العديد من العاملين الذين يمثلون الفئات أو المستويات التالية:

١ ـ المستوى الأول:

وهو الخاص بالوظائف الإدارية العليا، ويقتصر على وظيفة الوكيل، ويعين من قِبل صاحب أو مؤسس الخزانة للقيام بكافة الواجبات ذات الصلة بالمتابعة والتقويم وغيرها. ومن أشهر الوكلاء وأقدمهم ذكراً في المصارد التاريخية وإن لم نقف على اسمه تحديداً، الوكيل الذي عينه عضد الدولة البويهي على خزانة كتبه الخاصة بشيراز.

٢ ـ المستوى الثاني:

وهو خاصٍ بوظيفة الخازن، وهي الوظيفة الأولى والأساسية في جميع خزائن الكتب. وقد عد الخازن مسئولاً عن الخزانة إدارياً وفنياً، ويعاونه في أداء واجباته فئات عديدة من الاختصاصيين الفنيين والمساعدين وغيرهم. وقد اشتهرت وظيفة المشرف من بين هذه الوظائف المساعدة.

واكتسبت خزائن الكتب العباسية سمعة طيبة بفضل خزنتها ومساعديهم أو نوابهم، وما تحلوا به من صفات وأخلاق حميدة، وقد التزموا بقواعد وآداب أخلاقية تحدد واجباتهم ضماناً لعدم تضييع حق الله تعالى، وحقوق العباد، وهذا فضلاً عن مكانتهم العالية بالمجتمع، وخبرتهم العريضة.

ولأهمية وظيفة الخازن أو متولى الكتب، فقد كان الخليفة فى بعض الأحيان يتولى تعيينه، واختياره من بين كبار العلماء والأدباء، وذوى الدراية والمعرفة بالكتب، ومن هؤلاء على سبيل المثال: أبو سهل الفضل بن نوبخت وهو أول خازن للكتب فى الدولة العباسية، وقد ولاه الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ) القيام بخزانة كتب الحكمة.

وحفظت لنا المصادر التاريخية أسماء وتراجم العديد من الخزنة، نذكر منهم على سبيل المثال:

أ ـ سهل بن هارون (ت سنة ٢١٥هـ)، وقد اتصل بخدمة الرشيد، والمأمون الذى جعله كاتباً على خزائن الحكمة.

ب ـ أحمد بن مسكويه (ت سنة ٤٢١هـ)، وكان قيماً على خزانة كتب ابن العميد، ثم عضد الدولة البويهى، ثم اختص ببهاء الدولة البويهى.

جـ ـ الشمس على بن الكتبى (ق ٧هـ)، وهو أول خازن للمدرسة المستنصرية.

وكمساعد للخازن، كان المشرف يتولى مهام الإشراف والنظر فى أمور الخزانة، ومراعاتها، والاحتياط عليها، والعناية بها. ومن أشهر هؤلاء نذكر:

أ ـ الشريف أبو الحسن محمد بن أبى شيبة (ق ٤ / ٥هـ)، وكان مشرفاً على دار العلم ببغداد.

ب ـ أبو جعفر عمر الدباس (ت سنة ٦٠١هـ)، وكان مشرفاً بدار الكتب العتيقة بالمدرسة النظامية.

جـ ـ العماد على بن الدباس (ت سنة ٦٣١هـ)، وكان أول مشرف فى خزانة كتب المدرسة المستنصرية.

٣ ـ المستوى الثالث:

ويختص بجميع الفئات الفنية، ومن وظائفه: اختصاصيو التزويد، واختصاصيو التنظيم، والمترجمون (النقلة).

أ ـ اختصاصيو التزويد:

فى خزائن الكتب الكبيرة كبيت الحكمة اختص بعض العاملين باختيار الكتب، وتزويد خزانة كتب الدولة بها، وذلك بالإضافة إلى أعمالهم الأساسية، وقد كان منهم الخازن والمترجم، وغير ذلك. ولعظم هذه المسئولية فقد كان يتم تكليف بعض كبار العاملين بها، وبأمر مباشر من الخليفة. ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال: الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم «صاحب بيت الحكمة»، ويوحنا ابن ماسويه، وحنين بن اسحق.

ونهج كبار رجالات الدولة من علماء وأدباء وغيرهم نهج الخلفاء، فتناهوا فى طلب الكتب، وأنفذوا إلى بلاد الروم وغيرها من أخرجها إليهم.

ب ـ اختصاصيو التنظيم:

وقد تكفلوا بالقيام بكافة الأعمال التنظيمية كإعداد الفهرستات، وترتيب المجموعات، وما يتصل بذلك من إجراءات كالتسجيل والختم وغيرها. ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال:

ـ الشيخ عبد العزيز شيخ رباط الحريم (ت سنة ٦٣٧هـ)، وكان من العاملين غير المتفرغين فى خزانة كتب المدرسة المستنصرية.

ـ العدل ضياء الدين أحمد الخازن (ت سنة ٦٤٠هـ)، وهو ولد الشيخ عبد العزيز ـ سالف الذكر ـ وكان خازنا بخزانة كتب الخليفة المستنصر (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ).

ـ الشيخ شمس الدين على بن النيار (ق ٧هـ)، وكان ذا خبرة ودراية فى مجال تنظيم المجموعات. ويذكر ابن الفوطى أن الخليفة المستعصم (٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ) آخر خلفاء الدولة العباسية قصد المدرسة المستنصرية ومعه الشيخ شمس الدين، واعتبر خزانة الكتب التى بها وأطلع على نظامها وترتيبها، وأنكر عدم ترتيبها، فوكل بالنواب يومين، ثم أفرج عنهم.

جـ. المترجمون (النقلة):

تفرغ بعض العلماء وانقطعوا فى بعض خزائن الكتب للترجمة، خاصة من كان متقناً اللغات الأجنبية كاليونانية والفارسية والهندية، فضلاً عن اللغة العربية، وكان يساعدهم كتاب ومساعدون حذاق.

واختص بعض هؤلاء النقلة بخدمة الخلفاء وكبار رجالات الدولة وكان مقر عملهم ونشاطهم خِزانة كتب الدولة، وبعض خزائن الكتب الخاصة. واشتهر من هذه الفئة:

- ابن المقفع (ت سنة ١٤٥هـ)، وهو الذى مهد - فى خلافة المنصور - لترجمة الكثير من الكتب الفارسية إلى العربية.
- جورجيوس بن جبرائيل بن بختيشوع (ت سنة ١٥٢هـ)، واختص بالمنصور، ونقل له كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية.
- يوحنا بن ماسويه (ت سنة ٢٤٣هـ)، وقد ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة، ووضعه أميناً على الترجمة، ورتب له كتاباً يكتبون بين يديه.
- حنين بن اسحق (ت سنة ٢٦٠هـ)، وكان أعلم زمانه باللغات اليونانية، والسريانية، والفارسية، والعربية، وكان له كتاباً عالمين بالترجمة، كانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموا.

٤ - المستوى الرابع:

ضمت هذه الفئة النساخ والخطاطين والمجلدين وغيرهم ممن اتخذوا الوراقة حرفة لهم. وكان البعض منهم يعمل لحسابه الخاص داخل الخزائن، والبعض الآخر يعمل لحساب أصحاب الخزائن فى مقابل ما يجرى عليهم من أرزاق.

ونورد فيما يلى أشهر هؤلاء وأقدمهم ذكراً:

ـ علان الشعوبى (ق ٢ / ٣هـ)، وكان ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد، والمأمون، والبرامكة. وقد جمع بين عمله هذا ودكانه الذى يبيع فيه الكتب وينسخها.

ـ أبو الحسن على بن هلال، المعروف بابن البواب (ت سنة ٤١٣هـ)، وقد غالى الناس فى إحراز ما تُسطِّرُه أنامله من بدائع الخط المنسوب، وإليه رُد أمر خزانة كتب بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهى.

ـ ابن أبى الحريش (ق ٢ / ٣هـ)، وهو أول من اشتهر بصناعة التجليد فى خزائن الكتب العباسية، وكان يجلد فى بيت الحكمة فى خلافة المأمون.

٥ ـ المستوى الخامس:

ويقتصر على فئة المناولين، وهى درجة أعلى بقليل من الخدم، وقد احترف هذا النوع من العمل بعض الجوارى والغلمان.

وتتحدث توفيق السوداء عن عملها كمناولة بقولها: «... أنا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد... وكنت أُخرج الكتب إلى النساخ».

وغير توفيق، اشتهر:

ـ الجمال بن ابراهيم بن حذيفة، وهو أول مناول إلتحق بالخدمة فى خزائن كتب المدرسة المستنصرية.

ـ محمد بن سعيد بن محمد بن أبى المنجم الحدادى، وكان ممن إلتحق للعمل فى الخزانة سالفة الذكر.

٦ ـ المستوى السادس:

تضم هذه الفئة البوابين، والخدم، والجوارى، والفراشين، والطباخين، وغيرهم ممن أُلقى عليهم مهام خدمة رواد الخزائن والعاملين بها، فضلاً عن العناية بالمرافق

الأخرى الملحقة بالخزائن، أو التى تتبعها الخِزانة، كما فى المؤسسات التعليمية كالمدارس ودور العلم، وغيرها.

ومن فئة الخدم، يرد ذكر البواب والفراشين فى حديث ابن الفوطى بالحوادث الجامعة (سنة ٦٤٥هـ)، وقد تعرضت خزانة كتب المدرسة المستنصرية للسرقة فأنهى ذلك إلى الخليفة المستعصم بالله الذى أمر بالتحقيق، ولما لم يجدوا شيئاً من المسروقات تقدم الخليفة وأمر بتقسيط قيمة المسروقات على البواب بالخزانة والفراشين على قدر أحوالهم، فاستوفى ذلك منهم ورتب عِوَض ما سرق.

خامسا: المجموعات

انطلاقاً من حب القرآن الكريم الذى ولّد حب الكتب تنافس بنو العباس فى جمع الكتب وبناء مجموعاتها، وتباهوا بكثرة عددها وتنوع موضوعاتها ولغاتها.

وعلى الرغم من أن بعض الكتاب والمؤرخين قد حدد مجموعات بعض الخزائن بالأرقام، إلا أن البعض الآخر قد وصفها بصفات عامة، وغير دقيقة «كالكثرة»، وصفات مبالغ فيها فى بعض الأحيان «كتجاوز حد الكثرة»، و«ما لا يُحصى كثرة» وغيرها من الصفات الدالة على حب الكتب والتنافس فى جمعها، والتباهى بكثرتها.

وبصفة عامة يمكن تقسيم مجموعات خزائن الكتب العباسية بحسب حجم المجموعات إلى ثلاثة أقسام أو أحجام، كما يلى:

أ- **خزائن كبيرة الحجم:** وتبلغ مائة ألف أو تزيد، ومنها خِزانة كتب الصاحب بن عباد التى اشتملت على مائتين وستة آلاف مجلد.

ب- **خزائن متوسطة الحجم:** وتبلغ عشرات الآلاف، ومنها خِزانة كتب المدرسة المستنصرية، والتى بلغ عدد مجلداتها ثمانين ألف مجلد.

جـ - **خزائن صغيرة الحجم:** وتقل عن عشرين ألفاً، وهذه أكثر من أن تُعد وتحصى.

وكما وصفت المجموعات بالكثرة والضخامة فقد وصفت كذلك فى بعض الأحيان بكثرة عدد النسخ من الكتاب أو العنوان الواحد، فقد ذكر الجاحظ (ت سنة ٢٥٥هـ) أنه «ما كان فى خِزانة يحيى البرمكى (ت سنة ١٩٠هـ)، وبيت مدارسه كتاب إلا وله ثلاث نسخ».

وفضلاً عن الكثرة ـ وهذا معيار كمى ـ وصفت مجموعات كثير من الخزائن بالحسن، والجودة، والنفاسة، والندرة، والطرافة، وغيرها من الصفات الدالة على قيمتها وأثرها فى إثراء الحياة الفكرية ـ وهذا معيار نوعى ـ.

وبالاضافة إلى الكتب أو الدفاتر، وهى الشكل التقليدى والشائع فى الخزائن، فقد ضمت بعض هذه الخزائن ضمن مقتنياتها أشكالاً أخرى، كالخرائط والصور وأدوات اللعب كالشطرنج، وغير ذلك، وكان من بين هذه الأشكال أو المواد مفردات ذات قيمة وأهمية خاصة.

ونشير فيما يلى إلى بعض الخزائن التى اقتنت مواد ذات قيمة خاصة، ومعظم هذه الخزائن خاصة بالخلفاء والوزراء وكبار رجالات الدولة وغيرهم، وقد أتاح لهم نفوذهم وثراؤهم الحصول على مثل هذه المواد:

١ - **خِزانة كتب الخليفة المأمون الخاصة:** وكان بها الصورة المأمونية التى اجتمع على صنعتها عدة من الحكماء، وصوروا فيها العالم بأفلاكه، ونجومه، وبره، وبحره، وعامره، وغامره، ومساكن الأمم، والمدن، وغير ذلك.

٢ - **خِزانة كتب محمد بن عبد الملك الزيات (ت سنة ٢٣٣هـ):** وكانت بها نسخة من كتاب سيبويه أهداها الجاحظ إلى ابن الزيات، وكانت بخط

الفراء، ومقابلة الكسائى، وتهذيب الجاحظ، وقد وصفها ابن الزيات بأنها: «أجل نسخة توجد وأعزها».

٣ ـ **خِزانة كتب الخليفة الراضى بالله (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ)**: وكان من الطرائف التى ضمتها الكتاب الذى ورد من ملك الروم إلى الراضى بالله سنة ٣٢٦هـ وفيه يطلب الهدنة، وكانت الكتابة بالرومية (بالذهب)، والترجمة بالعربية (بالفضة).

٤ ـ **خِزانة كتب المدرسة المستنصرية**: اقتنت «كتاب الياسة» أو «اليسق» ويتضمن القوانين التى وضعها جنكيز خان لقومه، وضمنها النواهى والزواجر، وقد كتبت فى صفائح الفولاذ.

ولم يترك بنو العباس لساناً من ألسن الأمم المعروفة فى عصرهم إلا ونقلوا عنه، وإن كان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية، وقد أخذوا من كل أمة أحسن ما عندها.

وفى خلافة بنى العباس ظهر نوعان من العلماء، الأول منهم يغلب على ثقافتهم طابع النقل ويسمون أهل العلم، والثانى يغلب على ثقافتهم طابع الابتداع ويسمون أهل الحكمة. وقد انعكس ذلك على تسميه خزائن الكتب وموضوعات مجموعاتها، فخزائن أو بيوت الحكمة هى تلك التى يغلب على مجموعاتها طابع الحكمة أى الفلسفة بمعناها الواسع والذى يشمل الفلسفة والمنطق والطب والكيمياء والرياضيات وغيرها، وخزائن أو دور العلم هى التى يغلب عليها وعلى مجموعاتها طابع العلم، أى كل ما له صلة بالكتاب والسنة. أما دور الكتب فهى التى تجمع بين كتب الحكمة والعلم.

وفى بناء مجموعاته فتح بيت الحكمة أبوابه للكتب الوافدة من فارس، والهند، وبلاد الروم، وقد فتح الباب على مصراعيه فى خلافة المأمون، ونتج عن ذلك ازدياد حجم الكتب العقلية أو الدخيلة زيادة كبيرة.

ويتحدث ابن نباتة عن تفاصيل وظروف إرسال هذه الكتب بقوله:

«لما هادن المأمون صاحب جزيرة قبرص أرسل إليه يطلب خِزانة كتب اليونان، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته واستشارهم فى حمل الخزانة إلى المأمون، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطراناً واحداً، وقال: «الرأى أن تعجل إنفاذها إليه، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها»، فأرسلها إليه، واغتبط بها المأمون، وجعل سهل بن هارون خازناً لها».

وفى رواية مماثلة لما أورده ابن نباتة، يذكر القفطى هذه العبارة: «... سيِّرها ـ أى الكتب التى طلبها المأمون ـ فإنك تثاب عليها، فإنها ما دخلت فى ملة إلا وزلزلت قواعدها».

ومع دخول هذه العلوم العقلية الوافدة وتدفقها إلى بيت الحكمة وغيرها من خزائن الكتب تحققت نبؤة المطران. ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد تسابق كبار رجالات الدولة العباسية والأغنياء من العلماء والأدباء فى مجال بناء مجموعاتهم الخاصة من الكتب العقلية، وظهر إلى حيز الوجود (ق ٣هـ) أول خزانة كتب عامة ترفع الحكمة شعاراً لها وتتخذها اسماً، وهى خِزانة الحكمة بكَركر.

وفى معجمه للأدباء يتحدث ياقوت الحموى عن أحد رواد هذه الخزانة العامة بقوله:

«قَدِمَ أبا معشر المنجم من خُراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يُحسن كبير شئ من النجوم، فوصفت له الخزانة فمضى ورآها، فهاله أمرها، فأقام بها، وأضرب عن الحج، وتعلم فيها النجوم، وأعرق فيها حتى الحد، وكان ذلك آخر عهده بالحج، وبالدين، وبالإسلام أيضاً».

سادساً: النظم والاجراءات الفنية

١ - التزويد (مصادره):

تعددت مصادر التزويد فى خزائن الكتب العباسية فكانت الكتب وغيرها ترد إلى هذه الخزائن عن طريق: الشراء، والوقف والإهداء، والتأليف، والترجمة، والنسخ.

ونتناول فيما يلى كل مصدر من هذه المصادر على حدة:

أ - الشراء: ويمثل المصدر الرئيسى لتزويد الخزائن، خاصة خِزانة كتب الدولة، والخزائن الخاصة، ومنها خزائن كتب الخلفاء والوزراء وغيرهم من كبار رجالات الدولة.

وفى الحديث عن الآداب مع الكتب التى هى آلة العلم يوصى ابن جماعة طالب العلم «بأن يعتنى بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه شراء وإلا فإجارة، أو عارية...، وإذا أمكن تحصيلها شراء لم يشتغل بنسخها، ولا ينبغى أن يشتغل بدوام النسخ إلا فيما يتعذر تحصيله لعدم ثمنه أو أجرة استنساخه».

وشهدت أسواق الكتب العباسية فئة من فئات الوراقين تخصصت فى الدلالة، أى الترويج والدعاية للكتب، وقد عرفت هذه الفئة بدلالى الكتب، وكان من بينهم العالم والأديب، وكان لهذه الفئة أخلاقياتها، فقد كان من حق الدلال «ألا يبيع كتب الدين لمن يعلم أنه يضيعها، أو ينظرها لانتقادها، والطعن عليها، وألا يبيع شيئاً من كتب أهل البدع والاهواء، وكتب المنجمين، والكتب المكذوبة، ولا يحل له أن يبيع كافراً لا المصحف ولا شيئاً من كتب الحديث والفقه».

واستأجر بعض العلماء من ينادى له على كتاب أرهقه البحث عنه فى أسواق الوراقين. ومن هؤلاء العلامة أبو بكر بن الأخشاد الذى استأجر منادياً ـ عندما خرج حاجاً إلى مكة ـ لينادى فى عرفات، يسأل الناس عن «كتاب الفرق بين

النبى والمتنبئ»، للجاحظ، ولم يعثر على أثر للكتاب بالرغم من أن الحشد فى عرفات عظيم.

وبسبب الوفاة أو ضيق ذات اليد، أو غير ذلك من الأسباب اضطر بعض العلماء أو الأدباء أو غيرهم إلى بيع كتبهم أو جانب منها فى سوق الوراقين. ومن هؤلاء ابن حمدون الكاتب (سنة ٦٠٨هـ) الذى تقاعد الدهر به، وبطل عن العمل فأخرج كتبه وباعها وعيناه تذرفان الدموع كالمفارق أهله، والمفجوع بأحبائه، وكانت نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقها فى تحصيلها.

ب - **الوقف:** ارتبط وقف الكتب كمصدر من مصارد التزويد بنظام الوقف بصفة عامة، فكان هناك من يقف الأرض والمبنى بما فى ذلك الأثاث والتجهيزات، والمجموعات، فضلاً عن تقديم الرواتب للعاملين بالخزانة، وكان هناك من يقف الكتب، كل حسب إمكاناته.

ووقف الكتب يعنى أنه لا يجوز التصرف فيها بعد وقفها بأى حال من الأحوال، سواء أكان ذلك بالبيع، أم الشراء، أم الإهداء، أم غير ذلك من أنواع التصرف.

وباستثناء بيت الحكمة، وخزائن كتب الأفراد، يمكن القول أن معظم خزائن الكتب الأخرى قد قامت على قاعدة الوقف، إنشاءً وتمويلاً وصيانةً.

ويرد اسم الفقيه الشافعى أبو القاسم جعفر بن محمد الموصلى (ت سنة ٣٢٣هـ) على رأس قائمة رجالات الخير فى مجال وقف الكتب، وقد أسس داراً للعلم بالموصل، وألحق بها خِزانة كتب من جميع العلوم، وقفاً على كل طالب علم.

وغُصت بيوت الله فى الأرض (المساجد) بالكتب الموقوفة، وتنافس المسلمون وتسابقوا فى وقف الكتب الشرعية، وعلى رأسها المصاحف الشريفة، وقد تفننوا فى كتابتها وتجليدها وزخرفتها.

جـ- **الإهداء:** شكلت الكتب التى قدمت كهدايا إلى الخزائن جانباً كبيراً وهاماً من مقتنيات هذه الخزائن، وإن لم تصل فى حجمها إلى حجم الكتب المشتراة أو الموقوفة، وكان من بين هذه الكتب ما يمثل قيمة فنية أو علمية كبيرة.

يذكر ياقوت الحموى فى ترجمة ولى الدولة أحمد بن على بن خيران الكاتب، صاحب ديوان الإنشاء بمصر (ت سنة ٤٣١هـ) «أن ابن خيران سلم إلى أبى منصور بن الشيرازى رسول ابن النجار إلى مصر من بغداد جزء من شعره ورسائله، واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى أبى القاسم (المشرف على دار العلم ببغداد آنذاك)، وغيره مما يأنس به من رؤساء البلد، ويستشير فى تخليدهما دار العلم، لينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه ارتضى واستجيد».

ويؤكد هذا النص وجود ما نطلق عليه اليوم الخبراء والمستشارين الذى يستأنس برأيهم ومشورتهم فى المسائل ذات الصلة بتطبيق نظم وسياسات المكتبة، ومنها نظام وسياسة التزويد، كما يوحى إلينا بالإجراءات المتبعة فى مثل هذه الحالات.

وضمت خزانة كتب الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ) رُقْية تحبس السم عن الملسوع، وكان المعتضد قد أمر لصاحبها بجائزة سنية بعد أن جاءه بها، وقد نجح فى تطبيقها على ملسوع، وأمر كذلك بكتابتها وتخليدها فى خزانة كتبه.

د - **التأليف:** لأن العصر عصر تأليف وترجمة فقد تحولت بعض الخزائن إلى مجمعات علمية ـ بمفهومنا المعاصر ـ وكانت تضم العديد من كبار العلماء والأدباء، وكان جل همهم ـ وقد تفرغ بعضهم ـ القيام بأعمال التأليف والترجمة بناء على أوامر وتوجيهات خليفية ووزارية، وقد شجعهم على الاستمرار فى العطاء والانتاج العلمى ما توافر لهم من التشجيع المادى والأدبى.

وصنف كثير من المؤلفين العديد من المؤلفات لتضاف إلى رصيد خزائن بعينها، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال:

- إبراهيم بن السَّرِّى بن سهل المعروف بالزجاج النحوى (ت سنة ٣١١هـ) الذى فسر كتاب جامع النطق بخط الترمذى الصغير أبو الحسن، وجلده وحمله إليه، ولم يحمل مما عمله إلى أحد إلا خِزانة المعتضد ووزيره، وقد أمر المعتضد للزجاج بثلاثمائة دينار.

- جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع، وكان منقطعاً لإسماعيل بن عباد المعروف بالصاحب (ت سنة ٣٨٤هـ)، وقد صنف له كتاباً يختص بذكر الأمراض التى تعرض من الرأس إلى القدم، فوصله بشئ قيمته ألف دينار.

هـ - **الترجمة:** سارت الترجمة فى خط مواز لخط التأليف ونشطت وازدهرت وبلغت أوج ازدهارها فى خلافة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) وبتشجيع ودعم أدبى ومادى من الخلفاء وغيرهم من كبار رجالات الدولة، وبعض الأثرياء من العلماء والأدباء نشط المترجمون وأقبلوا على ترجمة الكتب من اللغات الأجنبية المعروفة آنذاك إلى اللغة العربية، ولم يتركوا موضوعاً من موضوعات المعرفة البشرية إلا وترجموا فيه، ونقلوا عنه، وأضافوا إليه.

وكما ارتبط وقف الكتب كمصدر من مصادر التزويد بنوع خاص من خزائن الكتب، وهى خزائن الكتب العامة، والخزائن الملحقة بالمساجد والمدارس والربط والبيمار ستانات وغيرها، فقد ارتبطت الترجمة كذلك بنوع خاص من خزائن الكتب وهى خزائن الكتب الخاصة، فضلاً عن بيت الحكمة (خِزانة كتب الدولة)، وربما كان ذلك بسبب ما تتكلفه الترجمة من نفقات فى جلب الأصول الأجنبية ودفع أجور المترجمين وأتعاب النساخ.

و - **النسخ:** ولتزويد خزائن الكتب بالإنتاج الفكرى الذى لا يتوقف والذى تجود به

قرائح المؤلفين والمترجمين كان عمل النساخ داخل خزائن الكتب لا يتوقف، فقد كانوا يعملون ليل نهار.

وكما قاد بيت الحكمة حركة التأليف والترجمة فى الدولة العباسية، فقد قاد كذلك وبنجاح ما يمكن أن نطلق عليه حركة النشر، وقد توافر له الدعم الأدبى من الخلفاء، والمادى من خِزانة الدولة.

وكما اختص بعض النساخ بنسخ الكتب العربية، فقد كان البعض الآخر يختص بنسخ الكتب المترجمة، ومن هؤلاء الفريق الذى رتبه الرشيد للعمل تحت إمرة يوحنا بن ماسويه أمين الترجمة فى بيت الحكمة.

وإذا كانت هناك خزائن اعتمدت على الشراء أو الوقف كمصدر وحيد لبناء مجموعاتها، فقد اعتمدت بعض الخزائن على النسخ كمصدر وحيد لبناء مجموعاتها، ومنها خِزانة كتب إبراهيم بن اسحق الحربى (ت سنة ٢٨٥هـ)، وقد بلغت مقتنياتها إثنى عشر ألف جزء لغة وغريب كتبها كلها بخطه.

٢ ـ التنظيم والإعداد:

كانت مجموعات الخزائن على درجة عالية من التنظيم، خاصة مجموعات الخزائن الكبيرة، وكان الهدف الأساسى للتنظيم هو سهولة تناول المجموعات واستخدامها.

وكما كان هناك اهتمام بتزويد الخزائن بكل غالٍ ونفيس فقد كان هناك اهتمام مواز بتنظيم هذه الخزائن، «ليسهل تناولها، ولا يتعب مناولها» كما يقول ابن الفوطى فى حوادثه الجامعة.

ونتناول فيما يلى كافة الإجراءات المادية والفنية، والنظم المستخدمة فى إعداد وتنظيم المجموعات:

أ ـ التسجيل: تبدأ الإجراءات المادية الخاصة بإعداد الكتب للتداول بتسجيل هذه الكتب في سجلات خاصة أُعدت لهذه الغاية بقصد إثبات ملكية الخِزانة لها، وكان سجل الكتب يعرف بالثبت.

وضمن إجراءات التسجيل، كان يتم وضع علامات على الكتب أو أختام لإثبات ملكيتها للخزانة، ومن هذه العلامات أو الأختام علامة المأمون.

وفي بعض الأحيان كان يكتب اسم الواقف على الكتب لإثبات الملكية الأصلية للكتب ـ قبل الوقف ـ وما زال هذا الإجراء متبعاً حتى اليوم، خاصة في المكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع.

ب ـ الفهرسة: الفهرسة هي العملية الأولى التي يتولى القيام بها اختصاصيو التنظيم في الخزائن، وإذا كانت الثبوت أو السجلات قد أعدت لإثبات ملكية الخزانة لمجموعاتها من الكتب، فإن الفهرستات كانت تعد لتيسير استخدام هذه المجموعات من الكتب والوصول إليها بسهولة من قبل المستفيدين، فضلاً عن العاملين.

ومن أقدم الفهرستات ذكراً في المصادر فهرست خِزانة كتب المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ). ويرد ذكر هذا الفهرست على لسان الحسن بن سهل، الذي يقول:

«دعا المأمون بفهرست كتبه وجعل يقلبه، فلم ير لهذا الكتاب ذكر [كتاب جاويدان خرد أي يتيمة السلطان] فقال: كيف سقط ذكر هذا الكتاب من الفهرست».

ويحدد ياقوت الحموي عدد مجلدات فهرستات خزائن كتب الصاحب بن عباد (ت سنة ٣٨٤هـ) بقوله: «كانت تقع في عشر مجلدات».

ويتحدث المقدسي عن فهرستات خزانة كتب عضد الدولة البويهي (ت سنة ٣٧٢هـ) بقوله: «كان لكل نوع [من الكتب] بيوت وفهرستات «فيها أسامي الكتب». ومن هذه العبارة نستنتج أن:

١ ـ الفهرستات المستخدمة فى هذه الخزانة كانت موضوعية.

٢ ـ أن المداخل الرئيسية فيها كانت بأسماء أو عناوين الكتب.

٣ ـ العلاقة بين نظام التصنيف المستخدم، والفهرستات المستخدمة فقد كان لكل نوع من الكتب بيت أو مكان خاص، وفى هذا البيت فهرست خاص كذلك، فيه بيان بأسامى الكتب.

وبالاضافة إلى الفهرست الموضوعى، خصصت بعض الخزائن فهرست لمؤلفات عالم أو أديب بعينه. وكان ذلك يتوقف على اعتبارات عدة من أهمها مكانة هذا العالم أو الأديب، وحجم انتاجه، ونوعه، وأثر هذا الانتاج وقيمته.

ويرد ذكر هذا النوع من الفهرستات فى حديث ياقوت الحموى عن فهرستات خزانة كتب جامع مرو (ق ٧هـ) فيذكر أنه كان من بين هذه الفهرستات فهرس خاص بمؤلفات البيرونى رآه ياقوت، وكان عن كتب البيرونى فى علوم النجوم والهيئة والمنطق والحكمة، والتى كانت تفوق الحصر، وقد كتبت فى ستين ورقة بخط مكتنز.

جـ ـ **التصنيف**: يقصد به تجميع الكتب المتشابهة، أى ذات الموضوع الواحد، فى مكان واحد، تسهيلاً لتناولها من قبل المستفيدين، فضلاً عن العاملين ـ خاصة المناولين ـ.

ويبدو أن كلمة «تصنيف» لم تكن مستخدمة فى الخزائن، وإن استخدمت كلمات بديلة توحى بنفس المعنى كالترتيب أو التنظيم أو الاعتبار، أو تفصيل الفنون أو العلوم، أو غير ذلك.

ولم تفصح المصادر عن وجود نظام أو نظم خاصة للتصنيف تم تطبيقها أو استخدامها ـ بشكل عملى ـ فى الخزائن لتنظيم مجموعاتها، وإن عجت المصادر بالحديث عن الكتب التى تصنف العلوم ـ بشكل نظرى ـ مثل:

ـ إحصاء العلوم للفارابى (ت سنة ٣٣٩هـ).

ـ ومفاتيح العلوم للخوارزمى (ت سنة ٣٨٧هـ).

ويعكس كتاب مفاتيح العلوم ـ على سبيل المثال ـ نظرة بعض علماء العصر ومنهم الخوارزمى للعلوم، وتعاملهم معها، وتنظيمهم لها، خاصة وقد عاش بنيسابور فى بلاط السامانيين، ومن المحتمل أن يكون قد استخدم نظامه لتصنيف العلوم فى تصنيف أو تنظيم خِزانة كتب السامانيين.

وقد جعل الخوارزمى كتابه على مقالتين، إحداهما لعلوم الشريعة وما يقترن بها من العلوم العربية، والثانية لعلوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الأمم. وهذا التقسيم يمثل نظرة العلماء آنذاك لعلوم العصر العباسى التى تم تقسيمها إلى علوم شرعية (نقلية)، وهى العلوم العربية، وأخرى قديمة (عقلية)، وهى علوم اليونانيين وغيرهم.

وابتكر البعض أساليب جديدة فى تصنيف الكتب وترتيبها على الرفوف، ومن هؤلاء أبو بكر الصولى (ت سنة ٣٣٥هـ) فقد كان له بيت عظيم مملوء بالكتب، وكانت جلود الكتب مختلفة الألوان، لكل صنف منها لون، فصنف أحمر، وآخر أخضر، وغير ذلك.

ومثل هذا الأسلوب فى الترتيب أو التنظيم كان يتطلب تحديد موضوعات الكتب فى الخزانة، وعلى ضوء ذلك يتم تحديد عدد الألوان المطلوب استخدامها، بحيث يخصص لكل موضوع لون خاص، وبالتالى مكان خاص.

د ـ **التكعيب:** لم يكن هذا المصطلح مستخدماً فى العصر العباسى، وقد استخدم هنا للدلالة على الاجراء التنظيمى الذين يسبق وضع الكتب على الرفوف أى تنضيدها. وبمقتضى هذا الاجراء كان اسم الكتاب يكتب عليه من الخارج «فى جانب آخر الصفحات من أسفل»، وكان يراعى أن تكون

البسملة (أول الكتاب) إلى أعلى، وأن يكون ما يطلق عليه اليوم كعب الكتاب جهة اليمين.

ولأن الكتب تنضد بشكل أفقى فوق بعضها البعض فقد كانت كتابة العنوان تظهر بشكل واضح، وفى اتجاه واحد. ويبدو أن طول عناوين الكتب فى معظم الأحيان قد حال دون كتابة بيانات أخرى على حواف الصفحات من أسفل، كإسم المؤلف.

هـ - **التنضيد:** كإجراء مادى أخير تأخذ الكتب مكانها فى بيوتها على الرفوف، وهو ما كان يعرف بالتنضيد. والتنضيد من نضد، ونضد الشئ جعل بعضه على بعض متسقاً يقول ابن منظور فى لسانه. والتنضيد بهذه الكيفية يخالف ما هو متبع الآن، فالكتب تنضد أو ترتب اليوم بشكل رأسى وليس أفقياً.

وكان الخازن يتولى عادة القيام بمهمة التنضيد فى الخزائن صغيرة الحجم. أما الخزائن المتوسطة والكبيرة فقد كان هناك من يتولى القيام بهذه المهمة نيابة عن الخازن، ومن هؤلاء النواب (المساعدون)، والمناولون.

وكانت هناك قواعد وآداب للتنضيد، منها ما ذكره ابن جماعة بقوله: «يراعى الأدب فى وضع الكتب باعتبار علومها، فيضع الأشرف أعلى الكل، فإن استوت فى فن فليراع شرف المُصنَف فيجعله أعلى، ثم يراعى التدرج، فإن كان فيها المصحف الكريم جعله أعلَى الكل، ثم كتب الحديث الصرف،... ثم تفسير القرآن، ثم تفسير الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الفقه، ثم النحو والتصريف، ثم أشعار العرب... [الخ]، ولا يضع ذات القطع الكبير فوق ذوات الصغير كيلاً يكثر تساقطها».

ومن حديث ابن جماعة نقف على ما يأتى:

١ ـ كان لكل شئ فى الخزائن آداب حتى التنضيد.

٢ ـ العلاقة الوثقى بين التنضيد والتصنيف أو الترتيب عموماً، وكيف أنهما أسساً على فلسفة ونظام دقيق.

٣ ـ أن العلوم والمعارف قد تم تصنيفها وترتيبها حسب شرفها ومنزلتها، كما تم حصر المصنفين (المؤلفين) وتصنيفهم حسب شرفهم ومنزلتهم.

٤ ـ لم تغفل القواعد الخاصة بالتنضيد الإجراءات العملية البسيطة ومنها طريقة تنضيد الكتُب حسب أحجامها، حرصاً على سلامتها، وسلامة من يتعامل معها.

و ـ **الجرد:** الجرد من الألفاظ المستخدمة حديثاً، وفي العصر العباسي اتسعت كلمة أو لفظ «الاعتبار» لتحتوى كل ماله صلة بالكتب، والنظر فيها بقصد تقويمها أو ترتيبها أو جردها، أو غير ذلك.

وكان جرد محتويات خِزانة الكتب من بين واجبات الخازن، ويدخل ضمن ذلك جرد الودائع والرهون وغيرها. ويتحدث ابن الجوزى عن الجرد كواجب من واجبات الخازن بقوله:

«... وليثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها، معارضاً ذلك بفهرسته متطلباً ما عساه قد شذ (بمعنى تفرق أو افترق) منها».

ومن حديث ابن الجوزى ـ رغم ايجازه ـ نقف على اجراءات الجرد، وخطواته، والأدوات المستخدمة فيه، ومنها الثبوت (السجلات)، والفهرستات.

ز ـ **الصيانة:** اتسع مفهوم صيانة المجموعات ـ كإجراء مادى وفنى ـ ليتضمن كافة العمليات المادية والاجراءات الفنية الخاصة بحفظ الكتب وغيرها من المواد فى حالة مادية مناسبة تمكنها من أداء المهام التى نيطت بها. ومن هذه العلميات والاجراءات نذكر: التجليد ـ الترميم ـ التنظيف ـ التبخير ـ الحفظ فى خزائن مغلقة.

وقد كان هناك حرص بالغ فى التعامل مع الكتب، يؤكد ذلك ما جاء فى حديث ابن جماعة عن نسخ الكتب، أو مطالعتها، وصفها، يقول ابن جماعة:

«إذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً، بل يجعله بين كتابين أو شيئين أوكرسى الكتب المعروف كيلا يسرع تقطيع حبله، وإذا وضعها فى مكان مصفوفة فلتكن على كرسى أو تحت خشب أو نحوه، والأولى أن يكون بينه وبين الأرض خلو، ولا يضعها على الأرض كيلا تتندى أو تبلى».

هذا وقد عُد التجليد من العناصر الهامة فى صناعة الكتاب وتجارته، وكان عمل المجلد مكملاً لعمل الخطاط والرسام والمذهب. وقد بدأ الاهتمام بالتجليد مع بداية تجليد المصاحف الشريفة، حرصاً على صيانتها وحفظها.

وكإجراء مكمل ومدعم للتجليد، عُد الترميم من العلميات والواجبات التى يتعين على الخازن ومساعده القيام بها، وفى هذا يقول ابن الساعى فى جامعه المختصر، وذلك ضمن حديثه عن واجبات المدرس فى مدرسة أبى حنيفة:

«... وليأمر خازنها بعد استصلاحها (أى الكتب) بمراعاتها ونفضها فى كل وقت، ومرمة شعثها (أى المتفرق منها)».

وقد لجأ البعض إلى تبخير الكتب كإجراء علاجى يستهدف الإبقاء عليها بعد تعرضها للغرق أو تغير رائحتها، ومن هؤلاء: سعيد بن المبارك النحوى المعروف بابن الدهان (ت سنة ٥٦٩هـ)، وكانت كتبه قد غَرِقت فى بغداد وهو غائب، فلما حُمِلَت إليه بخرها باللادن، فطلع ذلك إلى رأسه وعينه فأحدث له العمى.

وحرصاً على مقتنيات الخزانة ذات الكتب النفيسة فقد لجأ البعض إلى استخدام خزائن الكتب أو الأرفف المَغلقة حرصاً على الكتب وغيرها من السرقة، والغبار، وأشعة الشمس، والحشرات، والحيوانات القارضة كالفئران وغيرها.

سابعا: الخدمات والأنشطة

توافرت كافة العناصر التى أتاحت تقديم العديد من الخدمات والأنشطة لرواد خزائن الكتب العباسية، وكان من أهم هذه العناصر تشجيع الخلفاء وكبار رجالات الدولة على إنشاء خزائن الكتب العامة والخاصة، ومدها بكل ما تحتاجه من موارد بشرية ومادية، واستخدام القواعد والنظم التى تيسر استخدم هذه الخزائن.

وقدمت خزائن الكتب العباسية معظم الخدمات والأنشطة التى تقدمها مكتبات اليوم، والتى نتناولها هنا بإيجاز:

١ ـ خدمة القراءة والنسخ:

كانت الخدمة الأولى التى تقدمها جميع الخزائن على اختلاف أحجامها وتبعياتها، هى خدمة القراءة والنسخ، وقد ارتبطت منذ اليوم الأول لتقديمها بالأمر الإلهى الصادر من السماء والموجه إلى معلم البشرية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم (اقرأ).

وإدراكاً لأهمية القراءة أو المطالعة وارتباطها بالكتابة أو النسخ فقد كان ينص عليها ـ كخدمة ـ فى نصوص الوقفيات، ومن هذا ما جاء فى وقفية المدرسة المستنصرية، التى اشترط فيها الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ) «أن تجعل خزانة المدرسة برسم من يطالع ويستنسخ من الفقهاء».

٢ ـ إرشاد القراء:

ارتبط بخدمة القراءة والنسخ، توجيه القراء على اختلاف توجهاتهم وميولهم إلى ما يناسبهم من مواد قرائية، ومن العلماء الذين نصبوا أنفسهم مرشدين للقراء ابن الخاطبة الحافظ (ت سنة ٤٨٩هـ)، وكان «لا يأتيه مستعير كتاباً إلا أعطاه، أو دله عليه»، وفى الدلالة إرشاد وتوجيه وخدمة.

٣ ـ الخدمات الوراقية (الببليوجرافية) :

أعد البيرونى فهرستاً أو ببليوجرافية (وراقية) خاصة بكتب محمد بن زكريا الرازى (ت سنة ٣١٣هـ)، وقد كانت ضمن رسالة للبيرونى تحدث فيها عن مؤلفات الرازى، وعن الرازى نفسه وفى ختام الرسالة يعرض البيرونى ما معه من كتب الرازى ليختار من بينها من وجهت له هذه الرسالة.

ومن دراسة هذه الرسالة نقف على درجة التقدم فى مجال الخدمات الوراقية آنذاك، وقد قام البيرونى ـ وهو هنا صاحب خزانة كتب خاصة ـ بتجميع وإعداد هذه القائمة التى جمع فيها بين الترجمة لحياة الرازى، والتجميع الوراقى لإنتاجه الفكرى، مدعماً بالشرح والنقد. وهذه الرسالة التى وصلت إلينا تعد واحدة من النماذج الأولى للوراقيات الشارحة.

وأسهمت الفهرستات التى أعدتها خزائن الكتب ـ على اختلاف أنواعها ـ ومنها الفهرستات الموضوعية، وفهرستات المؤلفين ـ أسهمت فى تقديم هذا النوع من الخدمات.

٤ ـ الإعارة الخارجية:

تسهيلاً لحركة الكتب وتداولها، وتنشيطاً لاستخدامها، قدمت معظم خزائن الكتب هذه الخدمة، خاصة لمن تحول ظروفه دون الانتقال إلى الخزانة، أو الإقامة بها، أو شراء أو إجارة، أو نسخ الكتاب على نفقته، أو بيده.

وفى مُصَنَّفَه «تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم» أفرد ابن جماعة (ت سنة ٧٣٣هـ) باباً بأكمله للحديث عن الأدب مع الكتب بما فى ذلك عاريتها، ونسخها... نورد منه ما يلى:

أ ـ لا يعار الكتاب للغير، ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه.

ب ـ إذ استعار المستعير كتاباً فينبغى له أن يتفقده عند أخذه ورده.

جـ ـ ينبغى للمتسعير ألا يطيل مقام الكتاب المستعار عنده من غير حاجة، بل يرده إذ قضى حاجته، ولا يحبسه إذ طلبه المالك.

وكان الخطيب البغدادى (ت سنة ٤٦٣هـ) ممن يُرغب فى إعارة الكتب، ويذم من سلك فى ذلك طريقة البخل والامتناع. وقد نقل فى مصنفه «الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع» قول سفيان الثورى فى البخل بالعلم ما نصه:

« من بَخِلَ بعلمه ابتلى بثلاث:

ـ إما أن ينساه ولا يحفظ.

ـ وإما أن يموت ولا ينتفع به.

ـ وإما أن تذهب كتبه».

وكان من بين الأدباء والعلماء من يماطل فى إرجاع الكتب المستعارة أو لا يردها ومن هؤلاء: عبد الله بن أحمد الخشاب (ت سنة ٥٦٧هـ) «فكان إذا استعار من أحد كتاباً، وطالبه به، قال: دخل بين الكتب، فلا أقدر عليه».

ويتحدث ياقوت الحموى عن التيسيرات والميزات التى أفاد منها وقدمتها له خزائن الوقف فى مرو الشاهجان بقوله: «... كان لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد، وأكثرها بغير رهن».

ومن حديث ياقوت نقف على أنه لم تكن هناك حدود بخصوص عدد الكتب المعارة للعالم أو الأديب خاصة إذا كان معروفاً أو طيب الذكر، وأن الذى يحدد عدد الكتب المعارة هو الحاجة، أى حاجة المستعير ومكانته. كما نقف على أن بعض الخزائن كانت تشترط الرهن مهما كانت منزلة العالم أو الأديب، وربما يرجع ذلك إلى ندرة الكتاب، أو شرط الواقف، أو غير ذلك.

٥ ـ التأليف والترجمة:

ارتبطت هذه الخدمة بحركة التأليف والترجمة التى غذاها الخلفاء ودعموها بمالهم ونفوذهم، فضلاً عن أموال الدولة وقد أمدت خزائن الكتب على اختلاف أنواعها وأحجامها الكثير من العلماء والأدباء، ومنهم الخزنة والنقلة (المترجمين)، وغيرهم بنفائس الكتب التى أعانتهم فى كتابة مؤلفاتهم وترجماتهم، وكان من بين هؤلاء من تفرغ للتأليف أو الترجمة، وأفاد من كافة التيسيرات التى قدمتها الخزائن، وبصفة خاصة بيت الحكمة الذى قاد حركة التأليف والترجمة.

٦ ـ الخدمات التعليمية:

قدم الكثير من خزائن الكتب العباسية خدمات تعليمية للطلاب والمعلمين وغيرهم وذلك من خلال التيسيرات المتمثلة فى الإقامة الدائمة أو شبه الدائمة بالخزانة، أو دار العلم، وتقديم الرواتب أو العون المالى للطلاب المعسرين، وتقديم الأدوات الكتابية مجاناً، وتعيين المعلمين والشيوخ للتدريس ـ فى بعض الأحيان ـ داخل الخزانة، وغير ذلك من التيسيرات والخدمات ذات الصلة بالتعليم.

٧ ـ الخدمات والأنشطة التثقيفية والترويحية وغيرها:

كان للخلافات فى الرأى بين الأدباء والعلماء فى المجالس العلمية والمناظرات أكبر الأثر فى تقدم الحياة الفكرية، وكانت خزائن الكتب تقوم بدورها فى تدعيم كل فريق بالزاد الفكرى الذى يسانده فى حواره ومناظراته. وكانت بعض هذه المناظرات واللقاءات والمجالس، وغيرها من الأنشطة الفكرية والثقافية تعقد فى بعض خزائن الكتب أو على مقربة منها.

وكانت بعض خزائن الكتب تُعد من الأماكن المناسبة لإلقاء المحاضرات، والخطب، وكانت دار العلم ببغداد، ودار العلم بالموصل، من أشهر هذه الخزائن فى هذا المجال.

ويتحدث الحريرى فى مقاماته عن رجل دخل دارالعلم ببغداد وأخذ «يبدى ما فى وطابه، ويعجب الحاضرين بفضل خطابه».

وفى دار العلم بالموصل، كان مؤسس هذه الدار «يجلس فيها إذا عاد من ركوبه، ويجتمع إليه الناس فيملى عليهم من شعره، وشعر غيره، ومصنفاته، ثم يملى من حفظه الحكايات المستطابة، وشيئاً من النوادر المؤلفة، وطرفاً من الفقه، وما يتعلق به».

واستخدمت بعض خزائن الكتب كمنتديات ومراكز للقاء العلماء والأدباء وغيرهم، ومنها دار الكتب بالبصرة، والتى يصفها الحريرى بأنها: «منتدى المتأدبين، وملتقى القاطنين منهم والمغتربين».

وبالاضافة إلى كل ما تقدم من خدمات وأنشطة فقد استخدمت بعض خزائن الكتب كأماكن للترويح واللهو ومنها خزانة كتب فخر الدين مبارك الحسينى المروروذى (ت سنة ٦٠٢هـ)، التى قدمت لروادها لعبة الشطرنج، بالاضافة إلى الكتب.